

التنخية المرحة والمبتهجة لأم المؤمنين سودة بنت زمعة

إن الصحابية الجليلة السيدة سودة بنت زمعة رضي الله عنها وأرضاها، حين حكّت لزوجها السكران بن عمر، الرؤى الصالحة التي شاهدها في منامها، وقسرها بأنه سيموت هو وستزوج هي بالنبي صلى الله عليه وسلم، كان رد فعلها أن أكرت عليه هذا التفسير قائلة (حجراً وستراً)، مما يدل على أن سودة رضي الله عنها كانت تحب زوجها، ولم تتجراً على أن تتصور حتى في خيالها الذهني بأنها ستفارقه.



إن هذه الصفة هي من شمائل المرأة الأصلية، فهي إن أحبّت زوجها، فإنها تحبه بكل كيائها، ولو كانت فيه بعض العيوب التي تنغص عليها حياتها معه في بعض الأحيان، لذلك كان حدادها النفسي على موت رفيق دربها، أمراً صعباً وشاقاً عليها، كما كان فراق خديجة رضي الله عنها عسيراً على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لكن إيمان أمنا سودة رضي الله عنها، ساعدها على تجاوز هذه المحنة (١)، إن هذه الأخلاق الرفيعة تثير فضولنا بشكل كبير للتعرف على شخصية هذه المرأة الفريدة، التي تميزت في حياتها اليومية بطبيعتها المنشرة والمرحة في تعاملها مع الأشخاص المحيطين بها، وهذا ما سنتطرق له بتفصيل في محاور هذا المقال.

الخصائص النفسية للأنشراح والمرح

لقد تميّزت أمنا سودة بحدة الطبع كما وصفتها عائشة رضي الله عنها، ومن مميزات هذا الصنف من الناس، أنهم حين يريدون التعبير عن آرائهم، فهم يستعملون كلمات خشنة قد تجرح مشاعر الآخرين، فرئيس مقابلة مثلاً، حين يقف بين يديه شاب يريد العمل لديه، فغوض أن يقول له: (مع الأسف، لا أستطيع تشغيلك، فليس لدينا منصب يناسب قدراتك)، فتجده بدلاً عن ذلك يخاطبه بطريقة غير لائقة قائلًا: (أنت لا تصلح لهذا العمل) أو (أنت غير قادر على النجاح في هذه الوظيفة).

لكن رغم هذه السلبية في التعبير، فإن صاحب الطبع الحاد، يمتلك صفة إيجابية وهي أنه شخص صادق لا يعرف المجاملة، فهو لا يظهر لك عكس ما يشعر به تجاهك، لأنه إنسان صريح وواضح، وما أجمل هذه الصراحة والوضوح في شخصية أمنا سودة. فلكي تعالج الأثر السلبى لحدة الطبع فيها، كانت تلجأ لأسلوب المرح، لتلطف من خشونتها في التعامل، لتصبح بالتالي امرأة محبوبة غوض أن تكون منبوذة، وهذا من مظاهر ذكاء أمنا سودة حيث نجحت في خلق توازن في شخصيتها، بين غلظة الطبع وليونته

التعبير عن السرور بنبرة صوت عادية، وبطريقة معتدلة مقبولة من طرف الآخرين. أما الدرجة الثالثة: فهي القهقهة وهي إظهار الفرح بصوت عال وبطريقة مبالغ فيها، تجعل الإنسان يبدو ثقيل الظل، مما يثير اشمئزاز ونفور الآخرين من هذا السلوك النشاز (٣).

إن المرأة العاقلة بهذا المعنى، حين تكون وسط مجموعة من الناس، وفي حالة شعورها بالفرح والسرور، فإنها إذا ابتهجت تبسّمت، فيضفي عليها هذا الانشراح نوعاً من البهاء والتألق، وقد تضحك ضحكاً لائقاً ومقبولاً يحفظ لها مكانتها في أعين الناس، لكنها حين تقهقه وترفع صوتها فوق العادة، فهذا الأمر قد يتقبله زوجها وأبنائها وأقرب الناس إليها، لكن ممارسة هذا السلوك أمام عامة الناس، قد يُذهّب بهاءها ويجعلها تُنعت بخوارم المروءة، مما يدفعهم للتجرؤ عليها.

فما يجعل المرأة تُوصف بالجمال أو القبح من طرف الأشخاص المحيطين بها، هو درجة تعبيرها عن فرحتها وابتهاجها، فالمرأة المحبوبة ليست عبوسة الوجه أو مكفهرة الملامح، بل هي بشوشة الطلعة، فهي تبدو جميلة إذا تبسّمت أو ضحكت ضحكاً معتدلاً، لكنها إن ضحكت ضحكاً مفرطاً وبصوت عال، فهي تظهر بمظهر قبيح ومنفر.

مستفيدة في ذلك من التوجيه الرباني في قوله تعالى: (فبما رحمة من الله لئن بُئت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) (آل عمران: ١٥٩)، فقد فُكّت هذه القاعدة القرآنية في سلوكها وتصرفاتها، حيث لجأت للمرح كوسيلة لتلين طبيعتها الحاد (٢).

فتراها تكثر من التبسم وطلاقة الوجه، وبشاشة الطلعة، وسبحان الله حين يتبسم الإنسان تتحرك شفاته نحو الأعلى، فالابتسامة بذلك تعلي من شأن صاحبها وتجعله محموداً لدى الناس، لأنها تولّد الانشراح والبهجة في النفوس، والعكس صحيح، فالإنسان الانفعالي الذي تظهر عليه ملامح الاستياء والغضب، يصبح وجهه عبوساً، فتتحرك شفاته نحو الأسفل لتتحدر به إلى أسفل درجات سوء الخلق، التي تجعله منبوذاً لدى الآخرين. ومن المفيد الإشارة في هذا الإطار، حسب معطيات علم النفس المعاصر، أن هناك ثلاث درجات من الانشراح والفرح والبهجة لدى الإنسان:

- أولها هو الابتسامة: والتبسم هو درجة أقل من الضحك، بل هو مشروع ضحكة، فالابتسامة تمهّد لظهور الضحك، حيث يعبر الإنسان عن سعادته، بابتسامة هادئة، دافئة ولطيفة، تضي عليه نوعاً من الجمال والبهاء والاستحسان في أعين الأشخاص المحيطين به. أما الدرجة الثانية: فهي الضحك، وهو



د. رضى الجمرانى
تخصص علم النفس الإكلينيكي

النبى صلى الله عليه وسلم، طيلة ثلاثة عشر سنة، حيث انفردت به لمدة ثلاث سنوات في مكة المكرمة، وقضت معه عشر أعوام أخرى في المدينة المنورة برفقة زوجاته الأخريات رضى الله عنهن أجمعين، اللواتي رغم صغر سنهن فقد تفوقت عليهن السيدة سودة بشخصيتها الفريدة وبشاشتها وخفة ظلها رغم كبر سنها، كما أنها ضحت بالعديد من حقوقها الزوجية في سبيل إرضاء زوجها، وحسن معاملة بناته وزوجاته، فاستطاعت بذلك أن تتفادى بذكاء النكد الذي يكون متفشياً بين الضرائر. إن كل هذه الصفات النبيلة جعلت عائشة رضى الله عنها تصرح بأنها تجتهد لتقتدي بأمناء سودة، ومحاولاً أن تتصرف في حياتها على منوالها، فما أحوجك يا أيها المرأة المسلمة في زمننا المعاصر، أن تشبهي بهذه المرأة الفريدة من نوعها، فتكوني رضى الله عنك مبسمة في كل أحوالك، مستبشرة الطلعة عند لقاء زوجك، وشديدة الاهتمام والعناية بدينك، ومضحية ببعض حقوقك لجمع شمل أسرته وعائلته وعائلة زوجك.

المراجع

- 1- ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، المجلد 8، الصفحة: 196، الطبعة 1، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 2018.
- 2- شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، الجزء 2، سيرة سودة أم المؤمنين، الصفحات: 269-279، مؤسسة الرسالة، 2001.
- 3- ذكرياء إبراهيم، سيكولوجية الفكاهة والضحك، الصفحات: 27-44، مكتبة مصر، القاهرة- مصر، 2012.
- 4- محمد بن سعد بن منيع الزهري، الطبقات الكبرى، جزء 8، الصفحة: 57، مكتبة الخانجي، القاهرة- مصر، 2006.
- 5- ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، الصفحة: 187، دار الجيل، بيروت- لبنان، 1992.

سودة رضى الله عنها، طلبت من هذه الأخيرة أن تأكل، فلم تقبل، فقالت لها عائشة، إن لم تأكلي سأطخ وجهك بالطعام، فامتعت أمنا سودة، فطخت أمنا عائشة وجهها بالطعام، فلما شاهد النبي صلى الله عليه وسلم هذا الموقف، قال لسودة لطخي أنت أيضاً وجهها بالطعام، ففعلت وبدأ الثلاثة يضحكون من هذا الموقف الساخر.

لقد كان من الممكن أن يقول النبي عليه الصلاة وأزكى التسليم، هذا لا يليق أو هذا الأمر ينافي الأدب، لكنه كان يدخل السرور على زوجاته، ويحل المشاكل بكل يسر وسهولة، وحتى سودة رضى الله عنها كانت متقبلة للمزاح، ولم تغضب من تصرف عائشة رضى الله عنه، لأنها كانت تسيطر الأمور ولا تعطيهما أكثر من حجمها. ومن مستملحات أمنا سودة رضى الله عنها، نذكر أن زوجتي نبينا الكريم عائشة بنت أبي بكر الصديق وحفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، اتفقتا في يوم من الأيام على مازحة أمنا سودة، فأخبرتاها بأن المسيح الدجال قد خرج، ففزعت وانتابها الخوف، وهرعت إلى بيت كانوا يطهون الطعام فيه فاخترت بداخله، وبدأت تضحكان من رد فعلها، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم قال لهما، ما بالكما تضحكان، فأخبرتهما بالقصة، فذهب إلى سودة رضى الله فسألته: يا رسول الله هل خرج الدجال، فأجابها بصدقه المهود حتى في هذه اللحظة المسلية، فمازحها قائلاً: لا لم يخرج بعد، لكنه يوشك أن يخرج، فخرجت من مخبئها وبدأت تنفض الغبار وخبوط العنكبوت عن رأسها.

لقد أدركت أمنا سودة أن عائشة وحفصة رضى الله عنهما، كانتا تمازحانها، فتقبلت هذا المزاح بصدر رحب، ولم تغضب من مقلبيهما، وهذا دليل على قوة شخصيتها، فرغم أنها حادة الطبع لم يصدر عنها رد فعل انفعالي، لأنها كانت تتمتع بدرجة معتبرة من الثقة بالنفس، ويقدر كبير من الرزانة، التي مكنتها من قراءة هذا الموقف بشكل صحيح، فقد فهمت أنهما لم تقصدا الاستخفاف بشخصها، أو التقليل من قيمتها، بل كانتا تريدان أن تقضيا معها لحظات من المتعة والمرح بطريقة مهذبة، هذا كل ما في الأمر، وهنا تتجلى براءة أمنا سودة في تبسيط الأمور، وعدم إساءة الظن بالآخرين، وعدم المبالغة في رد الفعل، وسعة صدرها وتقبلها للمزاح، مما يعكس مرونة شخصيتها التي تزيدها رونقاً وبهاءً (5).

خلاصة:

إن أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضى الله عنها، نجحت في أن تكون ثاني زوجة رائعة من زوجات نبينا الكريم بعد وفاة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، فإذا كانت هذه الزوجة الأولى قد أتقنت لغة الحب والود والدعم النفسي لنبينا الكريم أثناء أدائه لرسالته، فإن سودة هي الزوجة الوحيدة التي تمكنت من إدخال البهجة والفرح والسرور على قلب

فما أجمل ديننا الحنيف، وما أروع السنة النبوية التي تدعونا إلى التعبير عن فرحتنا، ورسم ابتسامة جميلة في وجوهنا لندخل البهجة على قلوب الأشخاص الذين يتعاملون معنا، ويعتبر ذلك من الأعمال الصالحة التي يُؤجر المسلم على فعلها، فعن أبي ذر الغفاري رضى الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ابتسامتك في وجه أخيك صدقة) رواه الترمذي، إن هذا الحديث يحثنا على إفشاء الابتسامة في تعاملنا مع الناس، مع مراعاة الاعتدال في استعمالها، وفي نفس الوقت فديننا يعلمنا أدب التعبير عن الفرح بعدم المبالغة في الضحك حتى لا يتجاوز الحدود المقبولة من الناحية الشرعية والاجتماعية.

المواقف الطريفة لأمناء سودة مع نبينا الكريم

إن المرح والبشاشة، هو فن سلوكي سهل وفي متناول الجميع، لكن البراعة فيه بشكل معتدل هو أمر ممتع، لأنه يحتاج لفلطنة وذكاء من نوع خاص، وهي مهارة ذهنية انفردت بها أمنا سودة عن باقي زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كانت تصدر عنها بعض التصرفات الغفوية في مواقف جديدة، تتمكن بأسلوبها الطريف، من تحويلها إلى مواقف مثيرة للمرح والانسراح، فقد أطال النبي صلى الله عليه وسلم الركوع يوماً، وهي تصلي خلفه في البيت صلاة التهجد، فأمسكت أنفها، فلما حل الصباح سألتها عن سبب تصرفها بهذا الشكل، فقالت ما معناها: يا حبيب الله، لقد أطلت في ركوعك إلى درجة أنني، أمسكت أنفي خشيت الرعاف، مع أن الدم لم يسيل من أنفها بالفعل، فضحك عليه الصلاة والسلام من طرفة قولها.

فانظر يا أيها القارئ الكريم، كيف حوّلت أمنا سودة رضى الله عنها، موضوعاً جدياً وهو الصلاة إلى موقف هزلي يثير الضحك. إن هذا الموقف يعكس ذكاءها، وقدرتها على اختيار المواقف المناسبة، والكلمات اللائقة غير الجارحة لتدخل السرور على قلب رسولنا الكريم، وفي نفس الوقت عبرت له بطريقة غير مباشرة ولطيفة عن رغبتها في أن يخفف من ركوعه في المرة القادمة، حتى تتمكن من مواصلة التهجد معه بالليل، وهذه هي الفكاهة الإيجابية التي تجعلنا نضحك الآخرين دون أن نهتك ستار الحياء بيننا وبينهم، ونعبر لهم عما يزعجنا دون أن نجرح مشاعرهم، ويعكس الفكاهة السلبية، أو السخرية المبتذلة، التي لا يتقبلها السامعون، لأنها قد تخجلهم، وتثير استياءهم وتهين كرامتهم، كما أنها تخرج صاحبها الذي قد يندم على تصرفاته الساذجة والمتهور (6).

مستملحات أمنا سودة مع أمهات المؤمنين

إن عائشة رضى الله عنها لم تكن بارعة في الطبخ، ومع ذلك حضرت أكلة ذات يوم، ووضعتها أمام النبي صلى الله عليه وسلم وأمناء